

دراسات في نهج البلاغة

[37] ضمير، وعندئذ تغدو الفضيلة ضالا لا أثر له في صيانة المجتمع من أخطار التفاوت الطبقي. لذلك لم يكل أمر تحقيق القيمة العليا إلى الانسان وحده، وإنما جعل لها سندا من القانون، ليكون لها من القوة ما يحمل الاغنياء الاقوياء، وغير الاغنياء على التمسك بها. وكان من ذلك أن ساوى بين جميع الطبقات في الحقوق والواجبات، فالجميع سواء أمام القانون، والجميع سواء أمام القانون، وجريمة الغني هي جريمة الفقير، وجريمة الرقيق هي جريمة الصعلوك، لا يمتن هؤلاء لضعفهم ولا يحابى أولئك لشرفهم. وبهذا حال بين الطبقات العليا وبين أن تطعى وتعتز، لانه أثبت لها أن الغنى والسلالة والماضي العريق لن تجدي شيئا أمام القانون. وحال بين الطبقات السفلى وبين أن تشعر بالحيث والضعف والاستغلال، لانه أثبت لها أن عدم الغنى وأن ضعة النسب لا تجعل من القانون لها عدوا، وإنما هي أدعى لان تجعله أرفق بها، وأحنى عليها، وأرعى لشؤونها في السراء والضراء. * * * وحين تحتد الفروق الاقتصادية، فتنسج وتعمق، تغيض منابع الفضيلة من المجتمع وتسوده نوازع الحيوان. فأنت لا تستطيع أن تطلب من جائع لا يجد القوت أن يصير فاضلا، لان الحرمان لا يدفع إلى الفضيلة وإنما يخلق تصورات الحرمان التي تدفع إلى التمرد والاجرام حين لا يجد المحروم اليد البارة الوصول. إن الجائع الذي لا يجد ما يسد جوعته وإن خشن وهان، والعارى الذي يجد للريح مثل لسع الشياطين، وللشمس مثل مس الحميم، والمريض الذي لا يجد ثمن الدواء ولا الخلاص من اللواؤ - هؤلاء لا يستطيعون أن يتغنوا بالفضيلة حين يرون الغني الكاسي الصحيح الذي لا يعرف معنى للجوع، فالفضيلة ليست
